[١٤٣ – عن عائشة – رضي الله عنها – أن النبي ﷺ صلى في خميصةٍ لها أعلامٌ فنظر إلى أعلامها نظرةً، فلما انصرف قال: (اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهمٍ وائتوني بإنبجانية أبي جهمٍ؛ فإنها ألهتني آنفًا عن صلاتي)].

ذكر المصنف – رحمه الله – هذا الحديث الشريف الذي يدل على هدي النبي ﷺ وحرصه على الخشوع في الصلاة والوقوف بين يدي الله – عز وجل –، ونظرًا لاشتمال هذا الحديث على هذا الهدي النبوي الكريم المتعلق بالصلاة ناسب أن يعتني المصنف – رحمه الله – بإيراده في هذا الموضع. فقد أجمع العلماء – رحمهم الله – على أن المسلم إذا صلى ليس له من الأجر إلا على قدر ما عقل من صلاته وأن الناس يتفاوتون في وقوفهم بين يدي الله ﷻ ، ومن عظم الله حق تعظيمه وهاب الله كمال هيبته فإنه يستشعر موقفه بين يدي الله ربه، وإذا كبر في الصلاة استشعر أنه واقفٌ بين يدي ملك الملوك وجبار السماوات والأرض الذي لا تخفى عليه خافيةٌ، فأحس بعظمة الله واستشعر هيبة الوقوف بين يدي الله ﷻ فصلى حاضر القلب كامل الخشوع.

ولقد شهد الله ﷻ من فوق سبع سماواتٍ بالفلاح للمصلين ﴿ **ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ** ﴾ ومن خشع في صلاته عظم أجره ورفعت درجته وكان حظه من الصلاة – من خيرها وبركتها وفضلها وحفظها – بأفضل ما يكون، فمن كان خاشعًا في صلاته تمام الخشوع كتبت له صلاته كاملةً، وإن الرجلين يصليان كتف أحدهما إلى كتف الآخر وبينهما من الأجر كما بين السماء والأرض وكل ذلك بسبب الخشوع، وكل ذلك بسبب حضور القلب الذي يستشعر العبد فيه عظمة الله – جل جلاله –، فإذا تليت عليه الآيات واستمع إلى كتاب الله ﷻ يتلى عليه وهو مأمومٌ أو قرأ كتاب الله ﷻ وهو منفردٌ تلذذ بالآيات وأحضر قلبه العظات البالغات، وعندها قد تذرف عينه من خشية الله ويجد لذة وطعم الوقوف بين يدي الله ﷻ . ولذلك جعل الله ﷻ الصلاة قرة عين حبيبه – صلوات الله وسلامه عليه –؛ لأنها أحب الطاعات إلى الله – سبحانه – بعد الإيمان، قال ﷺ: (حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة) أي: جعل الله قرة عينه – صلوات الله وسلامه عليه – في موقفه بين يدي الله وهذا لكمال خشوعه وكمال ذلته وخضوعه، ولذلك كان

ﷺ أكمل العباد خشوعًا في صلاته حتى إذا خرج من بيته خرج خاشعًا متخشعًا متذللاً لله متبذلاً، يظهر فقره إلى الله وغناه بالله – سبحانه وتعالى –.

وإذا أنعم الله على العبد فرزقه الخشوع في الصلاة فإن الله – سبحانه وتعالى – يبارك له في ثمرتها التي من أعظمها وأجلها: رضوان الله ﷻ عليه، فإن الصلاة عمود الإسلام ودعامته ومن أقام عمود دينه فإن الله يقيم له دينه: يحفظه من الشهوات والمعاصي المرديات المهلكات، فيعيش في سلامةٍ من دينه ودنياه حتى يلقى الله ﷻ وهو سعيدٌ قرير العين بما وفقه الله إليه من طاعته ومحبته ومرضاته. ولذلك لما كمل خشوعه ﷺ في الصلاة ذاق لذة المناجاة وحلاوة الوقوف بين يدي الله ﷻ حتى تفطرت قدماه من طول القيام بين يدي الله في جوف الليل، ولما ذاق لذة الخشوع وأسلم لربه بكل ذلةٍ وخضوعٍ جعل الله في الصلاة تبديد همومه وزوال غمومه، فكان ﷺ إذا نزلت به الكروب أو أحاطت به الخطوب استفتح الصلاة، فأزال الله همه ونفس غمه وكربه وانفتل منها راضيًا مرضيًا عنه.

قالت أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها وأرضاها – كما في الصحيح: (كان النبي ﷺ إذا حزبه أمرٌ فزع إلى الصلاة) فكان إذا اشتدت عليه الأمور وأحاطت به الكربات صلى لله ﷻ ، ومن وقف بين يدي الله واشتكى إلى الله واحتمى بحمى الله، كفاه ووقاه وبدل الله خوفه أمنًا وبدل الله قلقه طمأنينةً، وجعل له من كل هم فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا.

الصلاة إذا أقيمت على وجهها وأديت كما ينبغي أن تؤدى عليه، رُزق العبد سعادة الدنيا والآخرة، ولذلك كابد السلف الصالح – رحمهم الله – هذه الشعيرة العظيمة وقال بعضهم: جاهدت في الصلاة أربعين سنةً وتلذذت بالخشوع عشرين عامًا. فأربعون عامًا وهو يجاهد نفسه في حضور القلب وكمال الخشوع لله حتى أصبح ذلك ديدنه وشأنه وعادته فسهلت عليه نفسه. فالمنبغي للمسلم أن يستشعر أن صلاته إنما تكون كاملةً بالخشوع. وكان ﷺ أكمل العباد خشوعًا بين يدي الله – جل جلاله – وأكملهم خضوعًا، ولهذا الخشوع وهذا الخضوع وحلاوة المناجاة لله – سبحانه وتعالى – أسبابٌ إذا تهيأت للمسلم سهل الله عليه خشوع الصلاة، ومن أعظم ما ينال به الخشوع وحضور القلب في الطاعات وفي القربات والصلوات: أن يسأل الله – عز وجل – بصالح الدعوات، فمن أراد أن يرزقه الله الخشوع فليكثر من الدعاء ولذلك ثبت عن النبي ﷺ أنه

قال: (اللهم إني أعوذ بك من قلبٍ لا يخشع، ومن عينٍ لا تدمع، ومن دعاءٍ لا يسمع، ومن نفسٍ لا تشبع، أعوذ بك من هؤلاء الأربع) فاستعاذ بالله أن يحرم الخشوع. فمن أعظم الأسباب التي تعين على الخشوع: كثرة الدعاء، والله كريمٌ جوادٌ ما سأله سائلٌ فخيبه ولا رجاه راجٍ فخيب رجاءه فيه – سبحانه وتعالى –، فيكثر المسلم من الدعاء ويقول: اللهم إني أسألك قلبًا خاشعًا، اللهم اجعلني من الذين هم في صلاتهم خاشعون.

أما الأمر الثاني الذي يعين على الخشوع والذلة بين يدي الله والخضوع: فكثرة ذكر الآخرة التي إذا دخلت إلى قلب المؤمن قادته إلى الله وحببته في الله، وكانت سببًا لأن يرزقه الله ﷻ كمال الالتجاء إليه وحسن الظن فيه – سبحانه وتعالى –. الآخرة التي يهذب الله بها سلوك المؤمنين وقوم بها حال عباده الصالحين، ولذلك قال الله – عز وجل – مشيرًا إلى هذا السبب، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ فأخبر الله – سبحانه – أن الصلاة كبيرةٌ إلا على الخاشعين، قال بعض المفسرين: إن المسلم الكامل في إيمانه الكامل في خشوعه يتمنى أنه لا يسلم من الصلاة من لذة ما يجد من حلاوة الوقوف بين يدي الله ﷻ ، فإذا سلب الخشوع أحس بالضيق وتمنى أن يخرج من صلاته – نسأل الله السلامة والعافية –، فقال الله ﷻ : ﴿ وَإِنَّهَا ﴾ أي: الصلاة ﴿ لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ فالخشوع يجعل في الصلاة لذةً ويجعل لها حلاوةً يعرفها من يعرفها، فلذلك كأن سائلاً سأل فقال: من هم الخاشعون يا رب؟ قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴾ أي: يوقنون؛ لأن الظن في لغة العرب يأتي بمعنى اليقين، ومنه قوله – سبحانه وتعالى – عن عبده السعيد في عرصات يوم القيامة أنه يقول: ﴿ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ أي: أيقنت. فقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ أي: أن الخاشعين هم الذين يظنون ويوقنون بالآخرة، ومن أيقن بالآخرة جعل الموت نصب عينيه، فقصر الله له بذلك الأمل في الدنيا وجعل قلبه وقالبه للآخرة، ومن ظن وأيقن بالآخرة جعل الله لحده وقبره بين عينيه فخاف من الله وخاف مما هو مقبلٌ عليه، فصلحت جميع أحواله واستقامت أموره لربه – سبحانه وتعالى –، ومن أيقن بالآخرة جعل

السؤال والحساب والصراط والميزان وعرصات الآخرة نصب عينيه يعمل لها ويسعى لها وهو مؤمنٌ وأولئك كان سعيهم مشكورًا.

أما السبب الثالث الذي يعين على الخشوع: فاستشعار العبد لعظيم الثواب وما أعد الله من الجزاء وحسن المآب لمن أقام الصلوات، فإن الصلوات أمرها عظيمٌ ومن أقام الصلاة أقام دينه، ولذلك إذا تذكر المسلم عظيم الثواب عند الله في صلاته وعظيم الجزاء عامل الله – سبحانه وتعالى –.

ولله المثل الأعلى، فمن علم أن التجارة تحتاج إلى لطفٍ في القول والعبارة، وتحتاج إلى لطفٍ في المعاملة مع الناس، وتحتاج إلى تجميل السلع وتزويقها أتقن ذلك كله، فكيف بمن يعامل الله – سبحانه وتعالى –؟ ولله المثل الأعلى. وهذه الصلوات معروضةٌ على الله – جل جلاله –، معروضةٌ بقيامها وركوعها وسجودها ودعائها وأذكارها وجميع حقوقها معروضةٌ على الله – سبحانه وتعالى –، فمن استشعر أن الله يجزيه على كل كلمةٍ وكل حرفٍ وكل لحظةٍ أتقن ذلك كله حتى يكون أجره عند الله أعظم، ويحس المؤمن وهو واقفٌ بين يدي الله ﷻ أنه ينافس الناس في أجره وثوابه؛ لأن الله – سبحانه وتعالى – يقول: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾.

ومما يعين على الخشوع في صلاة المؤمن: كثرة قراءة السيرة، سيرة النبي ﷺ وسيرة السلف الصالح وما كانوا عليه في عبادتهم لله – جل جلاله – من الخشوع والذلة والخضوع وحضور القلب بين يدي الله – سبحانه –. هذا مسلمٌ بن يسارٍ إمامٌ من أئمة السلف في العبادة والصلاح، كان كثير الصلاة وكان إذا طلعت الشمس صلى حتى يصلي الظهر، وكان يدخل مسجد الحي فيصلي فيه، ففي ذات يومٍ كان في صلاته فانهدم مسجد الحي وسقط وهو فيه فصاح الناس: مات مسلمٌ بن يسار مات مسلمٌ بن يسار، ثم دخلوا عليه في المسجد فوجدوا الجهة التي يصلي فيها لم تصب بأي سوءٍ ووجدوه في التشهد، فسلم – رحمه الله – من صلاته وقال: والله ما علمت أن المسجد انهدم إلا بعد أن سلمت. وهذا يدل على كمال الخشوع. الله أكبر، إذا أحب الله عبده وملأ قلبه بالدين والاستقامة والطاعة وحب الله – سبحانه وتعالى –، كان السلف الصالح على خير الأحوال وأصلحها وأكملها عبودية لله ﷻ ، ومن عرف الله بأسمائه وصفاته فإن الله ﷻ يوفقه إلى حسن عبادته.

إن كمال الخشوع في الصلاة حُسْنٌ في العبادة وجمالٌ في العبادة، والله يحب من عَبَده ويحب من ذكره وشكره، وتكمل محبة الله للعبد إذا كملت عبادته وإذا كملت طاعته لله ﷻ ، وإذا استشعر المسلم أن الله فرض عليه

خمس صلواتٍ في كل يومٍ وليلةٍ، وأنه حقٌّ لله فرض الله عليه أن يقيم حقوق هذا الحق وأن يؤديها على أتم الوجوه وأكملها، خشع في صلاته وخضع لله ﷻ في عبادته. نسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يجعلنا ذلك الرجل.

هذا الحديث الشريف وقف فيه النبي يحكي موقفًا من مواقفه – عليه الصلاة والسلام – التي تدل على كمال خشوعه لله ﷻ وخضوعه، حيث صلى وكانت عليه الخميصة – والخميصة: ثوبٌ له أعلامٌ –، ولذلك كره العلماء – رحمهم الله – تزويق المسجد وتزويق الفراش والمبالغة في ذلك حتى لا يُشغل المصلي عن الخشوع في صلاته؛ لأن النبي ﷺ وهو أكمل العباد خشوعًا وأتمهم ذلةً لله وخضوعًا ومع ذلك لم يستطع أن يخشع كمال خشوعه مع هذه الخميصة؛ لقوله: **[فإنها ألهتني آنفًا عن صلاتي]**. فكرهوا أن يكون في ثوب الإنسان الأعلام والخيوط والنقوش والرسوم التي تشغله أثناء الصلاة، وكذلك أيضًا ما يصلي عليه وهي سجادته أو الأرض التي يفترش عليها؛ لأنها إذا كان عليها النقوش والتزويقات لم يأمن أن ينشغل قلبه بها، ولذلك ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ : أنه صلى ثم قال: (يا عائشة، أميطي عنا قرامك هذا، فإنه ما زالت تعرض علي صوره حتى ألهتني في صلاتي آنفًا) فهذا يدل على أنه ينبغي للمصلي أن يتعاطى الأسباب التي تمنعه من شرود الذهن وانشغال البال والخاطر. ولذلك شرعت السنة القبلية لكي تهيئ المسلم للخشوع في الفريضة، وكذلك أمر من دخل المسجد أن يركع ركعتين قبل أن يجلس، كل ذلك لكي يتهيأ لكمال الخشوع، فكما أمر الله ﷻ وندب عباده لتعاطي الأسباب التي تحفظ الخشوع في الصلاة، منعهم من الأسباب التي تلهيهم عن الخشوع بين يدي الله ﷻ ، وهذا من كمال رحمته – سبحانه وتعالى –؛ لأن أجور العباد في صلاتهم ودرجاتهم في الصلاة موقوفةٌ على كمال الخشوع بين يدي الله – كما ذكرنا –.

وفي بعثه – عليه الصلاة والسلام – للخميصة وطلبه للإنبجانية التي هي عند أبي الجهم، قيل: لأنها كانت عليه – عليه الصلاة والسلام – وبعث بها إلى أبي الجهم فكان معاوضةً بالأفضل، وأُخذ من هذا: جواز المعاوضة بالرضا المعلوم، حيث إن النبي ﷺ لم يسأل أبا الجهم عن رضاه؛ لعلمه – عليه الصلاة والسلام – برضاه وطيبة خاطره. ومن هذا الباب: ما ثبت عنه – عليه الصلاة والسلام – لما ركب فرس أبي طلحة حيث ركبه من دون استئذانٍ، وبعث بالخميصة هنا من دون استئذانٍ، كل ذلك لعلمه بالإذن والرضا، وأن أصحابه – رضوان الله عليهم – يحبونه وأنهم يفدوه بأرواحهم وأنفسهم – صلوات الله وسلامه عليه، ورضي الله عنهم

أجمعين –. فأخذ العلماء من هذا: أن الرضا المعلوم في النفوس بغالب الظن أو باليقين أنه ينزل منزلة الرضا الصريح بالقول، وعلى هذا جرت مسائل في المعاملات مشهورةٌ.

وفي هذا الحديث دليلٌ على كرم خلق النبي ﷺ وكمال تواضعه، وذلك أنه رضي باليسير من الدنيا لقاء سلامة دينه – عليه الصلاة والسلام – وكمال خشوعه، وهذا هو حال العبد السعيد: أنه إذا خُير بين الدين والدنيا قدم الدين على الدنيا وجعل الآخرة أكبر همه ومبلغ علمه وغاية رغبته وسؤله، فإن فعل ذلك رزقه الله خير الدنيا والآخرة. فمن قدم الآخرة على الدنيا جعل الله الغنى في قلبه ويسر له ما يكون من جميع أموره وما جزاء الإحسان إلا الإحسان، ولذلك أخبر الله – عز وجل – في كتابه المبين: أن من أراد حرث الآخرة زاد له في حرثه [.....] .